

## زيارة إلى أبي كنفاني

## تذكر ياها... وهات



## بيسان طي

«الزمن شيء مبهم وغريب» تشعر أنني أن استشهد زوجها غسان كنفاني وقع بالأمس، فيما تشعر أحياناً بثقل السنوات التي مرت: «35 سنة إنه زمن طويل».

تذكر أنني جيداً ذلك الصباح، يوم السبت 7-8 1972 اجتمع غسان وزوجته وأولاده، وشقيقته فايزة وأولادها، وأم سعد (بطلة قصة «أم سعد»)، عند شرفة منزله في مار تقلال، وكانوا يتناولون وجبة الفطور. دار حديث طويل بين غسان وفايزة، استعادة خلاله سنوات طفولتهما في يافا. هذا آخر ما تحدث به، وكانت ميس ابنة اخته على عجلة من أمرها، تريد أن تذهب إلى بيروت، فخرجاً معاً، وبعد دقائق دوى صوت الانفجار المزلزل. تقول أنني: «الكل في المنزل أدرك الفاجعة. ركضت أم سعد وأولادنا ولحقنا بها».

يشعر بأنه مهدد: «اعتقد أن الإسرائيليين سيحاولون خطفه، لم يكن يتوقع اغتياله. لذلك اصطحب ميس معه. وقيل وفاته بيوم واحد، أخذ أولاده وأولاد فايزة في نزهة إلى البحر».

أني لم تغادر لبنان. الزوجة التي كانت صبية شابت. تركت منزلها في مار تقلال وتعيش حالياً في محلة فندان. على الجدران صور غسان تشعّر الزائر بأن الناظر إليه شاب دائماً، وأنه على قيد الحياة. تقول أنني إن ثمة أشخاصاً لا تشعر أنهم ماتوا: «عندما يكون هذا الشخص قريباً منا، وعندما يكون مهماً، إنه هنا من خلال كتبه ومن خلال الناس». وتضيف: «تشرع بوجود ميس من خلال أطفال مؤسسة غسان كنفاني».

رغم مرور السنوات ومئات الدراسات والأفلام والمسرحيات التي وضعت عنه، لا يزال الكلام عن غسان كنفاني يحتمل البحث عن جديد. «فغسان ترك 18 كتاباً، وكان علامة متميزة في الأدب العربي، وقد كان صحافياً مميزاً».

هذا الذي يتسم في بعض أشهر صوره، لم يكن يصطنع ضحكته. الكاتب الموهوب والمناضل السياسي العنيد كان يتمتع بروح النكتة، لذلك لم تكن له عداوات شخصية حتى بين من كانوا يخالفونه الرأي... أو يناصبونه عداً سياسياً. «في جنازته مشى المثقفون وعمامة الناس، جاؤوا من مختلف القارات السياسية». أخصامه الذين أنكروا عليه حقّه في الدفاع عن قضيتهم، «لم ينكروا أبداً موهبته الأدبية». وتذكر أنني: «كان يحب بشكل خاص كتابات دوستوفسكي وغوركي وهمنغواي». وكان مكتبه في مجلة «الهدف» ملتحقاً لصحافيين عالميين.

استعادة كتاباته وقناعاته السياسية أمر أكثر من ضروري في الوقت الحالي. «كان يؤكد أن حل القضية الفلسطينية يكون عربياً أو لا يكون. كان قوياً عربياً يعشق جمال عبد الناصر. أدرك أنه لن يعود إلى فلسطين، لكنه كان يشعر بأن «أطفالنا سيعودون إليها». كان يردد هذه الجملة رغم وعيه بأن «المعركة من أجل القضية الفلسطينية قاسية جداً جداً، بل أنها ستكون وحشية».

إذا سألت أنني «عن الرغبة في الثأر»، تجيب من دون طول تفكير: «قد يكون الثأر على طريقي، أي الرغبة في التحدي وإكمال ما أراد غسان. لذلك أنشأنا مؤسسة غسان كنفاني الثقافية التي تعنى بالأطفال، فهو كان يؤمن كثيراً بالصغار».

هذه المؤسسة تحيي ذكرى كنفاني كل عام، تقام معارض وأنشطة ثقافية في المخيمات الفلسطينية. لكن الأوضاع الأمنية المتردية في لبنان لن تسمح بإقامة احتفالات ضخمة هذا العام. وتبحث المؤسسة حالياً في برنامج مميز تقديمه العام المقبل في الذكرى 36 لاستشهاد غسان كنفاني الذي توفي في 26 سنة، هو المولود في عكا عام 1936، والثورة الفلسطينية في أوجها.

<http://www.ghassankanafani.com>

<http://www.horria.org/gassanwords.htm>

## كنفاني، جبرا، حبيبي: قراءة من داخل الخزان

فهو ملهم في شخصيته ومواقفه وتقدميته ونقديته وحدائه رؤيته إلى العالم، وفي القيم التي جسدتها شخصيته. بينما كانت شخصية إميل حبيبي «ضحية» لفكرة الهزيمة، ولكونه ينتمي إلى قسم من الشعب الفلسطيني وجد نفسه أقلية في أرضه، معزولاً عن بقية شعبه وأمهته العربية، فرض عليه أن «يكون» إسرائيلياً بين ليلة وضحاها، وبالتالي تجرّع الهزيمة مزدوجة، فتجلت مقاومته لها تراجمياً بومية سجلها حبيبي في أعماله الأدبية. أضف إلى ذلك أن مواقف حبيبي السياسية لم تنل القبول والإعجاب الذي جازته أعماله الأدبية، إذ عانى سوء فهم، وفسرت بعض مواقفه عكس ما كان يشتهي أو يضر.

أخيراً، يبرز دائماً سؤال القيمة الأدبية وتغير السياق أو تحولاته على قراءة غسان كنفاني، فلسطينياً على الأخص. إذ يفترض دوماً أن السياق تغير، وأن أدب كنفاني هو أدب سياق. وهي كلها افتراضات لا تبدو دقيقة بشكل كافٍ لطرحها بهذه الطريقة. (رغم الإقرار بأن «الالتزام» الأدبي بمفهومه الخمسيني والستيني يعاني جملة مركبات ليست في صالح الكتابة كفن). وفي حالة كنفاني يتصاعد هذا النقاش، لكون قراءة كنفاني عانت دوماً من الأدلجة والتنميط. وفي فلسطين، كانت قراءته جزءاً من مقررات الجبهة الشعبية على منسبها. كما أن كنفاني كان أحد أهم منظري «أدب المقاومة» و«شعر المقاومة»، ولعله كان أحد نحاتي هذا المصطلح ومروجه عربياً. هذا المصطلح الذي تحول قالياً لاحقاً، وصار ضرورياً كسره لتحرير الكتابة وإعطاء فعالية أكبر لفكرة المقاومة.

واليوم، لم تنته مرحلة الجوع بعد، بل إن تراجمها تأخذ أبعاداً سرالية حين «يلجا» مثلاً لاجئ مخيم «نهر البارد» في الشمال اللبناني إلى مخيم لبناني آخر، وتعلو المطالب بحق «عودتهم» إلى مخيمهم! الحالة الفلسطينية التي صورها كنفاني عقب النكبة ماثلة اليوم وتكاد تتطابق مشاهد من رواياته مع صور الفلسطينيين بعد 60 عاماً على الجوع الأول... تمر كشرط سريع في مناطق مختلفة من الجغرافيا العربية خصوصاً. في كل مطار، نذكر «رجال في الشمس»، وعند كل نقطة حدود عربية، هناك شاحنة وخزان وسائق فقد رجولته اسمه «أبو الخيزران» لا ينفك يتغنى بفحولته، بينما نحن في «الخزان» (أي «ما تبقى لنا» من فلسطين)، نقرأ غسان ونفكر بالكاتب الشاب الذي توقف عن الكتابة في الـ 36... نختلج يده تطير لحظة التفجير. يده التي جدوها تليس الساعة المتوقفة عند الساعة 11، على سطح إحدى بنايات بيروت!

عن تأثيرات كنفاني اليوم على كتاب السرد الفلسطيني، وخصوصاً الداخل الفلسطيني، لوجدناها أقل بكثير من تأثيرات إميل حبيبي. إذ تبدو تأثيرات هذا الأخير واضحة في الجيل الجديد عبر تلك اللغة الساخرة والقدرة على التعري، وعدم إنكار الهزيمة، بل الجراءة في إعلانها واستمداد القوة من ذلك. فوعي الهزيمة هنا هو شرط تجاوزها، وقوة المهزوم تكمن في صدقه مع نفسه، ودفاعه عن ذاكرته.

وفي حين أن كتابة حبيبي أكثر تأثيراً من أعمال كنفاني في الجيل الجديد من الروائيين الفلسطينيين، إلا أن تأثير كنفاني كرمز يتجاوز بكثير تأثير حبيبي، ليس فقط بسبب منزلته الأيقونية كشهيد وفارس كلمة، بل لأن كنفاني هو شخصية مضاءة بفترة الصعود القومي وسؤال المقاومة، وعليه،



## في كل مطار نلتقي

«رجال في الشمس»

وعند كل حدود عربية

هناك شاحنة وسائق

فقد رجولته اسمه

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

## كتيبة من المؤلفين (والفدائيين) في كاتب واحد

قيل في الـ «هورس شو» إنني ساقط في الخيبة

## حسين بن حمزة

لم يعيش سوى 36 سنة. لكننا إذا نظرنا إلى كتاباته الروائية والقصصية والمسرحية والنقدية، إضافة إلى عمله كباحث وسياسي ومؤرخ وصحافي ورسام، نحسب أننا أمام كتيبة من المؤلفين، وليس كاتباً فرداً. إن غسان كنفاني يترك لنا صورة كاتب واطب على الكتابة طوال حياته التي كان يستشعر ربما أنها ستكون قصيرة. لا بد أن هذا الرجل تخلى عن النوم والعطلات والسفر واللهو، ووهب حياته كلها للكتابة وحدها... وإلا كيف يمكن تصديق عدد كتبه، وعدد الأسماء المستعارة التي كتب بها. لا بد أن صاحب «عائد إلى حيفا» وجد وصفة سرية لمضاعفة سنوات عمره من دون أن يتغير عدها. ليتمكن من إنجاز كل هذه الأعمال. بغير «معجزة» كهذه يصعب رد حضوره الكثيف والشاسع في الأدب الفلسطيني والعربي إلى شخص واحد عانى - فوق ذلك - من هشاشة الجسد ومرض السكري وداء النقرس ووباء التدخين.

في دمشق حيث كان محرراً في «الرائي»، أسس مع بلال الحسن وفضل

وصحافي، تتحالف مع تراجمية عمره القصير. إنه أمر أشبه بالمعجزة أن يتولى شخص واحد كل هذه الوظائف، وأن يتمكن من كتابة سبع روايات وخمس مجموعات قصصية وأربع دراسات نقدية وعدة مسرحيات، وأن يسود الألف المقالات والأعمدة والافتتاحيات، وأن يكون في لحظة قتله منكباً على ثلاث روايات معاً. بل إنه، إضافة إلى كل هذا، كتب رواية «من قتل ليلي الجانك» وهي رواية بوليسية غير مكتملة نشرت على حلقات في إحدى المجلات الفنية. ويُقال إنه كتبها بسبب حاجته إلى بعض المال.

كان غسان كنفاني يقول: «ربما الاسم الواحد، كالعمر الواحد، لا يكفي لإخراج كل ما يموج في داخل الإنسان». لهذا ابتكر الرجل كل تلك الأسماء ليُرسي وحش الكتابة الذي يقيم في أعماقه؟ لهذا اخترع كتيبة من المؤلفين ليساعده على إنجاز أعماله وطموحاته... ولعلها من سخريات القدر أن تصفه قائلته غولدا ماخبر، رئيسة وزراء إسرائيل، بـ«الكتيبة» أيضاً. ففي ردّها على سؤال لأحد الصحافيين الغربيين، قالت: «كان أخطر علينا من كتيبة من الفدائيين». أما آخر أفراد الكتيبة التي كانت

## في الضوء الخافت

لعشق أتل الكاتب،

يمكن أن نستعيد

سطوراً فاتنة لم يكثر

صاحبها المتيم بما

سيقوله الناس

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

«أبو الخيزران»

الرمزية ككاتب فلسطيني! لا داعي هنا لاستعادة ذلك الكم من الكتابات البائسة التي رأت في قيام غادة السمّان بنشر رسائله إليها، تشويهاً لصورته كرمز ومناضل. بالنسبة إلى هؤلاء بدأ أمراً ممجواً وغير أخلاقي أن يتزوج المناضل بغير القضية، فكيف إذا أحب على القضية وعلى زوجته الفعلية؟ لقد أبان



صاحب «رجال في الشمس»، وبصرف النظر عن ظروف علاقته بغادة السمّان، عن الإنسان الحقيقي والهش الذي في داخله، وكشف أن المناضل ليس ماكينة جامدة لإنتاج الأفكار والمواقف، بل هو إنسان قبل كل شيء.

تحت الضوء الخافت لعشق أتل صاحب «ما تبقى لكم»، يمكن أن نستعيد سطوراً فاتنة لم يكثر فيها غسان العاشق بما سيقوله الناس لو قرأها. لم يهمه سوى أن يكون صادقاً حين كتب لها: «يقولون هذه الأيام في بيروت، وربما في أماكن أخرى، أن علاقتنا هي علاقة من طرف واحد، وأنتي ساقط في الخيبة. قيل في الـ «هورس شو» إنني سأتعب ذات يوم من لعق حذائك البعيد. يُقال إنك لا تكثرين بي، وإنك حاولت أن تتخلصي مني... لكنني كنت ملحقاً كالعلق. يشفقون عليّ أمامي ويسخرون مني ورائي...» ثم كتب في رسالة أخرى: «تستطيعين أن تدرجي اسمي في قائمة التأهين، وتدوسي عليه وأنت تصعدين إلى ما تريد... ولكنني أقبل... إنني أقبل حتى هذه النهاية التعيسة».

رغم أعماله وكتاباته الكثيرة، يبدو أن غسان كنفاني وجد وقتاً ليحب أيضاً. تصورا!